

التنظير ما بعد الحداثي للعلاقات الدولية: هدم في انتظار البناء  
**Postmodern theorizing of international relations:  
 destruction awaiting construction**

محمد الطاهر عديلة

جامعة محمد بوضياف، المسيلة (الجزائر)، [mohamedtahir.adila@univ-msila.dz](mailto:mohamedtahir.adila@univ-msila.dz)

تاريخ النشر: 2021/06/27

تاريخ القبول: 2021/05/30

تاريخ الاستلام: 2021/05/01

**ملخص:**

يسعى ما بعد الحداثيون إلى إحداث ثورة شاملة في/ وعلى كل المفاهيم والنظريات السائدة في حقل العلاقات الدولية منذ تأسيسه وإلى غاية تسعينيات القرن العشرين، أين أصبح يعكس بنظرهم هيمنة واضحة للواقعية الجديدة التي تتبنى رؤية إقصائية تستند إلى مبادئ الفلسفة الوضعية. وعليه كان لا بد من مجابهة هذه الهيمنة عن طريق إثبات العجز والقصور والتحيز في كل ما يطرحه الوضعيون من جهة، ومن جهة ثانية إجراء مراجعة شاملة وجذرية لما ينبغي أن يكون عليه الحقل المعرفي والنظري للعلاقات الدولية مستقبلا.

**كلمات مفتاحية:** العلاقات الدولية، ما بعد الحداثة، التنظير، الهدم، البناء.

**Abstract:**

Postmodernists seek to bring about a total revolution in all the concepts and theories on which the specialty of international relations is based, from its inception until the 1990s, as it has come to reflect a clear dominance of the new realism that adopts an exclusionary positivist vision. Therefore, this hegemony had to be confronted by showing impotence, inadequacy and prejudice in all the positivist claims on the one hand, and

on the other hand a total and radical review of what the theoretical field of International Relations should be In the future.

**Keywords:** International Relations, Postmodernism, Theorizing, Destruction, Construction.

المؤلف المرسل: محمد الطاهر عديلة

## 1. مقدمة:

في تسعينيات القرن العشرين، برز تيار فكري ينادي بضرورة إجراء مراجعة شاملة وجزرية لكل المفاهيم والنظريات السائدة في حقل العلاقات الدولية، بدعوى أنها أنتجت في إطار مبادئ فلسفة - وضعية - تدعي إمكانية الولوج إلى الحقيقة الإجتماعية (الدولية) وصياغتها في أشكال من السببية والحتمية، والتعبير عنها بلغة كمية ورياضية. بيد أن خصائص الظاهرة الإجتماعية التي تختلف جذريا عن نظيرتها الطبيعية تستدعي - حسب مفكري وأنصار هذا التيار الذي تعددت مسمياته بين: ما بعد الحداثة Postmodernism، ما البنوية Post structuralism، ما بعد الوضعية Post-positivism - الإنطلاق من إطار تفكير مختلف تماما: فلسفيا، أنطولوجيا، إبستمولوجيا، ومنهجيا.

نحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على المشروع الفكري والنظري الذي قدمه مفكرو ما بعد الحداثة في نقد ونقض الأسس التي قامت عليها النظريات الوضعية (التقليدية)، وفي مقدمتها الواقعية التي تدّعي أنها تُقدّم معرفة علمية، موضوعية، وموثوقة حول شرح وتفسير ما يحدث فعلا في السياسة الدولية. متسائلين عن قدرة ما بعد الحداثة في تقديم بديل نظري - يتسم بالعمومية والشمولية في فهم وتحليل العلاقات الدولية - عما تطرحه النظريات الوضعية السائدة؟

والفرضية التي نقدمها للإجابة عن هذا التساؤل تتمثل في نفي قدرة، بل وحتى إمكانية تقديم مثل هذا البديل النظري، كون أن المنطلقات الفلسفية والإبستمولوجية التي يتبناها مفكرو ما بعد الحداثة لا تتيح لهم هذه القدرة والإمكانية.

تم تقسيم هذا الدراسة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: يتحرى الأول منها عن مفهوم ما بعد الحداثة والسياق العام الذي نشأ فيه. ويبحث الثاني في الأسس الفلسفية التي تركز عليها ما بعد الحداثة في التفكير حول الظواهر الاجتماعية والإنسانية بشكل عام، وكذلك الخيارات الإبستمولوجية والمنهجية التي يعتمدها مفكرو ما بعد الحداثة للتعامل مع موضوعات بحثهم. بينما يفحص العنصر الثالث ما قدمته ما بعد الحداثة في مجال التنظير للعلاقات الدولية.

## 2. مفهوم ما بعد الحداثة:

يَعْتَبِر ريتشارد ديفيتاك أن "ما بعد الحداثة" هو مفهوم خلافي يثير الكثير من الجدل حول تحديد معنى مُوحد له، حتى بين ما بعد الحداثيين أنفسهم، فضلا عن نقاد ومعارضين هذا التيار الفكري. وأولى مظاهر هذا الخلاف تتمثل في التسميات المختلفة التي تطلق على مضمون هذا التيار، حيث نجد "ما بعد البنيوية" و"ما بعد الوضعية" اللتين ذكرناهما سابقا، وأحيانا نجد مصطلح "التفكيك" Deconstruction. وهناك من ذهب إلى أن جميع التسميات الموجودة لا تتطابق مع جوهر ومضمون هذا التيار، وبالتالي من غير المفيد البحث في تسمية موحدة (Devetak, 2005, p161). ويؤكد كل من ستيف سميث وباريسيا أوينس أن ما يحول دون إمكانية الإتفاق حول تسمية واحدة لهذا التيار هي الفروقات النظرية الجوهرية بين توجهاتها المختلفة (Smith and Owens, 2005, p285).

وبعيدا عن جدل التسمية، فإن البحث في مضامين ما بعد الحداثة قد أفضى بنا إلى تشكيل صورة عامة عن المقصود منها، يمكن استخلاصها من التعاريف التالية. يَصِفُها ستيف سميث بأنها "تتم بشكل أساسي بتفكيك ورفض الوثوق بأي وصف للحياة الإنسانية يدعي أنه يصل مباشرة إلى الحقيقة" (سميث، 2004، ص387)، فهي بنظره قطعة تامة مع كل أشكال الإدعاءات المعرفية السابقة التي تُجَادَلُ بأنها تحوز الحقيقة الاجتماعية أو جزءا منها، اعتمادا على استخدام المناهج العلمية - التجريبية التي أنتجتها فلسفة الحداثة. ويرى إيان كريب أن ما بعد الحداثة تعني مجموعة من التطورات في الفلسفة الحديثة انبثقت مباشرة عما أصبح يعرف بالتحول اللغوي، وفي علم الاجتماع تعني أن العالم الاجتماعي قد شهد تحولات جذرية وأساسية (كريب، 1999، ص236). وهناك من انطلق من تحديد علاقتها بالحداثة وتساءل عما

تعنيه إضافة البادئة "ما بعد"؟ هل تعني الإستمرار عن طريق الإصلاح والتقويم أم تعني القطيعة التامة؟ ديك هيبدايغ ذهب في الإتجاه الثاني حينما ادّعى أن "ما بعد الحادثة هي الحادثة الخالية من الأحلام والآمال التي مكنت البشر من تحمّل الحادثة" (عبد الله، 2010، ص128).

وفي الحقيقة، لا نسمع أو نقرأ عن ما بعد الحادثة إلا ونجدها مقترنة بالفيلسوفين الفرنسيين جان فرانسوا ليوتار وميشال فوكو. فيعرفها ليوتار بقوله: "ببساطة شديدة أعرف ما بعد الحادثة كميل إلى الشك اتجاه ما وراء السرديات" (Smith and Owens, 2005, p285). وهذا يعني أنه يرفض كل إمكانية للحديث عن الحقيقة الإجتماعية أو الإدعاء بالإنفاذ والوصول إليها، وأن الحقيقة هي جزء من الخطاب اللغوي، سواء صيغ في شكل مفاهيم أو نظريات أو حتى في شكل قوانين (Meyers, 2005, p61). وما يقصده ليوتار بما وراء السرد Meta-Narrative هو تلك الروايات أو النظريات التي تدعي أن لها أسسا واضحة للمعرفة ومؤيدة بالشواهد التجريبية. وعليه فمهمة التفكير ما بعد الحداثي هي التشكيك والإرتياب وتقويض كل نظرية في العلوم الإجتماعية والإنسانية تدعي أنها تمتلك الحقيقة. وهكذا فإن ما يُدعى بالنظريات الكبرى أو التقليدية في العلاقات الدولية - التي يزعم أنصارها أنهم اكتشفوا بعضا من الحقيقة الأساسية حول العالم - وجب أن تخضع مفاهيمها ومقولاتها وافتراساتها للنقد والمراجعة على ضوء قيم ومبادئ فلسفة ما بعد الحادثة (Smith and Owens, 2005, p285). ومن جهته، اهتم ميشال فوكو بالعلاقة بين المعرفة (الخطاب) والسلطة والقوة، وبيّن كيف أن الحيادية والموضوعية المزعومة في الخطابات والمعارف العلمية التي تتباهى بها تيارات الحادثة ترتبط في الحقيقة بقوة المؤسسات التي تسندها، والمؤسسات القائمة تحتاج إلى معرفة تبرر وجودها واستمرارها وبقائها، وإلى خطاب يشرعن أفعالها ووظائفها. ليخلص فوكو إلى أن المعرفة والقوة لا ينفصلان، كل منهما يحتاج إلى الآخر، وبالتالي يجب أن نبحث عن الرهانات السلطوية في كل المعارف والخطابات العلمية السائدة، بغية تعريتها وفضحها.

هناك من قارب مفهوم ما بعد الحادثة من خلال مناظير أربعة (حمدوي، 2012،

:https://bit.ly/3t6sABr

- المنظار الفلسفي: الذي يرى أن ما بعد الحادثة هي دليل على الفراغ بغياب الحادثة نفسها.

- المنظار التاريخي: الذي يرى أن ما بعد الحداثة هي حركة ابتعاد عن الحداثة أو رفض لبعض جوانبها.
  - المنظار الإيديولوجي- السياسي: الذي يرى أن ما بعد الحداثة هي تعرية للأوهام الإيديولوجية الغربية.
  - المنظار الإستراتيجي: الذي يرى أن مقارنة نصوص ما بعد الحداثة لا تتقيد بالمعايير المنهجية، وليست ثمة قراءة واحدة بل قراءات متعددة ومنفتحة.
- يمكن القول أن ما بعد الحداثة هي مرحلة من مراحل تطور الفكر الغربي الحديث، تلي مرحلة الحداثة الطويلة نسبياً، تُعبّر عن حركة وفلسفة ديناميكية، وترفض الدوغماتية والأنساق المعرفية المغلقة التي فرضتها فلسفات الحداثة.

### 3. الأسس الفلسفية، الإيستمولوجية والمنهجية لـ "ما بعد الحداثة".

أعلن جان فرانسوا ليوتار في كتابه المعروف "الوضع ما بعد الحداثي: تقرير حول المعرفة" الذي نشره في العام 1979 عن سقوط النظريات والإيديولوجيات الكبرى وعجزها عن قراءة الواقع أو تفسيره، لأنها تعاني من الجمود والإنغلاق وهي ليست قادرة أبداً كما يذهب أصحابها وروادها على تفسير سيورة العالم أو المجتمع (وظفة، 2019، <https://bit.ly/3t7n0Pd>). وفي الحقيقة، شكّلت الانتقادات اللاذعة التي وُجّهت إلى الحداثة - بوصفها سيورة فكرية واجتماعية - أرضية الإنطلاق والتأسيس لفكر ما بعد الحداثة الذي أخذ على عاتقه ما يلي: (حمداوي، <https://bit.ly/3t6sABr>):

- هدم الأنساق الفكرية الجامدة والإيديولوجيات الكبرى المغلقة وتقويض أسسها.
- العمل على إزالة الثنائيات المتناقضة التي أقامها الحداثيون بين الذات والموضوع، بين المادة والفكر، بين العقلانية والروحانية في الإنسان، ... إلخ.
- رفض الحتمية الطبيعية والتاريخية التي كانت سائدة في مرحلة الحداثة، ولا سيما مفهوم التطور الخطي الذي هيمن على مقارنة ورؤية الأنساق الاجتماعية.

يرفض مفكرو ما بعد الحداثة فكرة اليقين المعرفي المطلق، فبنظرهم لا توجد حقائق اجتماعية مطلقة، نهائية، ثابتة، وكونية. بل إن صفات التغيير، والظرفية، والنسبية، والسياقية الاجتماعية، والخصوصية المحلية هي أهم ما يميز الحقيقة. وعليه فلا يمكن لأي أحد ادعاء امتلاك الحقيقة أو التفرد بها، لأنها أصلا ممتنعة عن ذلك. الحقيقة كما يقول ما بعد الحداثيون ليست شيئا ثابتا مكتملا نسعى فقط إلى اكتشافه، وإنما ترتبط بوعينا وإدراكنا ووجهات نظرنا، وهي انعكاس لها في الوقت نفسه أيضا. ففي سبيل بحثنا عن الحقيقة نشئ حقائق خاصة بنا، سواء بقصد منا أو من غير قصد. وعليه، كل مطالبة بامتلاك الحقيقة مؤسسة على الحكايات الكبرى أو خلفية النظرة إلى العالم، تحمل في طياتها إقصاء لمطالبات أخرى حول الشيء نفسه. ولذا، وُصفت ما بعد الحداثة بأنها تشكيك في الحكايات أو السرديات الكبرى.

إبستمولوجيا، يعتقد مفكرو ما بعد الحداثة أنه لا يمكن أبدا معرفة أي شيء بشكل يقيني، ولا توجد حقيقة خارجية مستقلة عن آرائنا واللغة التي نستعملها للتعبير عن هذه الآراء. إنهم يرفضون المنطق التقليدي الذي يقوم على تطابق الدال والمدلول، أي تطابق الأشياء والكلمات، فاللغة كذلك هي مبنية اجتماعيا، ولا يمكن أن تكون حيادية وموضوعية وكونية، وهذا الأمر ينسحب على المفاهيم والمعارف والنظريات التي تُعبّر عنها في النهاية بهذه اللغة أو بتلك. وبالنتيجة فلا يوجد واقع أو عالم موضوعي كما يدعيه الوضعيون (Mansbach and Rafferty, 2008, p32). كما أنهم لا يعترفون بالتمايز والفصل بين النظرية والممارسة، بدعوى عدم وجود مسافة تفصل بين الذات والموضوع، والتي من شأنها أن تجعل من الموضوعية والحيادية أمرا ممكنا (غريفشيس وأوكلاهان، 2008، ص355).

وفي نفهم لفكرة الموضوعية عن العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تختلف اختلافا جوهريا (كما يعتقدون) عن العلوم الطبيعية، فإنهم يؤكدون على الارتباط القوي بين المعرفة والقوة. ف ميشال فوكو يعارض بشدة المفهوم المهيمن في النظريات العقلانية والوضعية من أن المعرفة مُمتنعة ومُحصنة ضد طرق عمل القوة. ويجادل بدلا من ذلك أن القوة تنتج المعرفة، وكل قوة تحتاج إلى المعرفة، وكل معرفة تعتمد وتتعزيز أو تتقوى بعلاقات القوة الموجودة. وبالتالي، لا وجود لأي شيء كحقيقة منفصلا أو غير مرتبط بالقوة، إذ يقول

فوكو: "كيف يمكن للتاريخ أن تكون له حقيقة إذا كانت الحقيقة لها تاريخ" (Smith and Owens, 2005, p285). فالحقيقة ليست شيئاً موجوداً خارج الأوضاع الاجتماعية بل هي جزء منها.

إن نفي الموضوعية والحيادية وإمكانية الوصول إلى معرفة موثوقة بشأن الحقيقة يجعل من ما بعد الحداثيين نسبيين Relativists، لاعتقادهم بأنه لا توجد حقائق واضحة، وأن ما هو صحيح أو خطأ يختلف من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر (Mansbach and Rafferty, 2008, p33). ويجعل منهم شكوكيين Scepticists حينما يرددون فكرة استحالة الوصول إلى حقيقة موضوعية أو عالمية. لأن ما يوجد في العالم هو في النهاية مُعتمِدٌ على "ما يوجد في أذهاننا" (ونت، 2006، ص81). إن الوقوع في شرك النسبية والشكوكية جعل من فكر ما بعد الحداثة تحت طائلة الإتهام بأنه فكر عبثي وخدمي، لا يقود الإنسان والإنسانية إلا إلى غياهب المجهول. ولكن هل يُعَدُّ ما بعد الحداثيين - بصفة مطلقة - أي إمكانية للمعرفة؟ الجواب لا، لأنهم يدافعون عن معرفة نسبية وتعددية وتاريخية قابلة للنقد والمراجعة باستمرار. وهنا تلعب ما يسمى بـ "الإنعكاسية" أو "التأملية" Reflexivity دوراً مهماً في تحقيق ذلك.

تنطلق الإنعكاسية من رفض وجود معايير موضوعية Objective Standards مستقلة عن الفكر والممارسة الإنسانيين (Neufeld, 1995, p42)، وبالتالي فإن المعايير المستخدمة في تحديد مصداقية وصلاحيّة المعرفة ليست طبيعية وليست مُعطاة، بل تُصنَع ويتم اختيارها بالإتفاق بين أعضاء المجموعة العلمية، ولذلك فهي معايير إنسانية لا يمكن اعتمادها كمرجعية لقياس صحة أو خطأ الإدعاءات المعرفية المختلفة. ويذهب فريد شيرنوف إلى أن مفهوم الإنعكاسية يفصل العلاقات الدولية والعلوم الاجتماعية ككل عن العلوم الطبيعية، ولذلك فالتنظير للعلاقات الدولية يتطلب دراسة الإنسان لأفعال الإنسان، مما يجعل هذا الأخير دارساً ومدروساً في الوقت نفسه (Chernoff, 2007, p140).

منهجياً، طرح ما بعد الحداثيون أسئلة تعكس قلقهم الإستمولوجي حيال الإدعاءات الوضعية بشأن الحقيقة. لخصها خوانيتا الياس وساتش بيتر فيما يلي (Juanita and Sutch, 2007, p113):

- إلى أي مدى يمكننا المجيء حقا بـ "حقائق إمبريقية" قابلة للإثبات حول السياسة العالمية؟
- هل من الممكن حقا الوصول إلى نظرية عامة بطريقة علمية حيادية؟

- هل ادعاء الحياد الخالي من القيم يجنب حقيقة أن النظريات تخدم مصالح الجماعات الأقوى في المجتمع؟

أفضت فلسفة ما بعد الحداثة في سبيل إزاحة هذا القلق الإبستمولوجي والمنهجي في الوقت نفسه إلى تغيرات وتحولات منهجية، حيث بدأت تركز على مفاهيم النسبية الثقافية وتبتعد عن مفهوم النظرية الكبرى، وذلك تماشياً مع تقاليد ما بعد الحداثة التي رفضت القصص (النظريات) الكبرى (حسن، 2010، ص144). واستخدم ما بعد الحداثيون مناهج بحث بديلة ومتنوعة، ليس من أجل بناء نظريات تُفسر وتفهم الواقع الموجود، ولكن من أجل تقويض وتفكيك النظريات القائمة، وتبيان كيف أنها ممركة حول الذات والقيم الفردية الغربية، وكيف أنها إقصائية ترفض مفاهيم التعدد والإختلاف والضرورة. لأجل ذلك، وجب أن تكون المناهج والأساليب مناسبة وملائمة لهذه المهمة، إذ تراوحت بين التأويل أو الهارمونيقيما والجينيولوجيا والتفكيك والتناص ... إلخ. وعموماً، تتلاءم المناهج البحثية لما بعد حداثة مع التوجه الإبستمولوجي المضاد للوضعية، والقاضي بأن العالم لا تحكمه انتظامات ولا قوانين موضوعية، كما لا يمكن الحديث فيه عن حقيقة نهائية لا تاريخية A historical، كما أن التاريخ ليس خطياً ولا تقديمياً بالضرورة.

#### 4. الإسهام النظري لما بعد الحداثة في العلاقات الدولية.

يشير العديد من الباحثين إلى أن إسهامات ما بعد الحداثة في تطوير نظرة أو تصور بديل للسياسة العالمية لا تزال في مراحلها الأولى، كون أن اهتماماتها لا تزال مُنصبة على تكثيف النقد الإبستمولوجي والمنهجي لتقويض أسس الفكر الإنساني المهيم، والذي كان نتاج "المشروع التنويري" الغربي القائم على الفلسفة الوضعية والمناهج التجريبية العقلانية. وبذلك هم يسعون إلى إعادة النظر في كثير من المفاهيم والأدوات التحليلية كالمعرفة والواقع والعقل والحقيقة... إلخ (حجار، 2003، ص37).

وكاهتمام بالتنظير للعلاقات الدولية، يمكن ردها إلى منتصف الثمانينيات من القرن العشرين. لكن كحضور فعلي، يمكن إرجاعها إلى منتصف التسعينيات. ومع ذلك فهي المقاربة الأكثر شعبية بين

المقاربات النقدية أو البديلة للعلاقات الدولية. كان ظهورها رد فعل من زاويتين (براون، 2004، ص164):

- الأولى: كرد فعل على هيمنة التيار العقلاني على الحقل النظري للعلاقات الدولية بزعم التوليفة نيو- نيو أو محور الواقعية الجديدة - الليبرالية الجديدة.
  - الثانية: تم إنشاؤها على أنقاض الإنتقادات التي وُجِّهت للنسخة الجديدة من الماركسية والمتمثلة في "التبعية"، وبالتالي ضرورة البحث عن بديل راديكالي لمجابهة الاتجاه السائد.
- يعترف المفكرون والباحثون ذوو التوجه ما بعد الحداثي في مجال العلاقات الدولية أن المفاهيم الأساسية في الحقل مثل: الدولة، والسيادة، والقوة، وتوازن القوى قد تشكلت وتطورت في ظل ظروف تاريخية معينة، وتحديدًا في ظل هيمنة الدول الأوروبية على العالم. وعليه، فإن العلاقات الدولية المعاصرة تعكس خبرة أوروبية خالصة في مجالي النظرية والممارسة (Mingst, 2003, p17). لذا، فإن مهمة التحليل ما بعد الحداثي هي تفكيك المفاهيم الأساسية للحقل، واستبدالها بحقائق ومفاهيم تعكس فكرة التعدد والإختلاف على المستوى العالمي، والإنتتاح على باقي الشعوب والثقافات.
- يجادل والكر أن نظريات العلاقات الدولية تصبح أكثر أهمية عندما يُنظر لها كمظاهر للسياسة العالمية المعاصرة تتطلب تفسيرًا، مقارنة بالنظر إليها كتفسيرات للسياسة الدولية المعاصرة (حجار، ص38).
- وينظر فريد شيرنوف إلى نظرية العلاقات الدولية كجزء من العالم الواقعي أو الحقيقي، وعليه فإن ما بعد الحداثة كتوجه نظري، تنطلق من رؤية للعالم الأكاديمي على أنه جزء من العالم الحقيقي، وتنظر إلى الصراع حول الخطاب في العالم الأكاديمي كجزء من الصراع حول الهيمنة داخل المجتمع. إنها تجادل بأن اللغة تُشكِّل وتُهيكل عالمنا الاجتماعي، وتضمن قوة ووضعًا متقدمين لبعض المجموعات السياسية والاجتماعية على حساب البقية. وعليه، ينبغي عدم الإقتصار فقط على فحص خطاب القادة والمنظمات السياسية، بل كذلك يجب فحص خطابات علماء ومنظري العلاقات الدولية (Chernoff, p140).

لقد اهتم ما بعد الحداثيون بشدة بمسألة كيف يُبلَّغ ويُوصَّل الأكاديميون نظرياتهم؟ ما نوع اللغة التي يستعملونها؟ وكيف لنظرياتهم أن تُبرَّر وتُشرَعَنَ مختلف المقاربات التي تتعامل مع المشكلات في العالم الحقيقي؟

حاول مفكرو ما بعد الحداثة تحديّ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية على مستوى قاعدته الأساسية، وذلك حينما تساءلوا: ماذا نعني بالعلاقات الدولية؟ وباستخدام آلية "التناص" Intertextuality دعا إلى ضرورة تضمين الخطاب حول العلاقات الدولية أصواتا كثيرة ومتعددة. ولتحقيق ذلك، وظفوا كلمات ذات مدلولات محددة مثل: التهميش، والإمتياز، والسكوت، والنسيان. إن المراهنة على آلية التناص تعني إعطاء الدور الأساسي للغة في فهم وإدراك الواقع أو العالم الإجتماعي، فاللغة لا تعكس الواقع، بل الواقع يُبنى ويُصاغ بثبات من خلال استعمال اللغة في مسار لا نهائي من الشرح والتفسير (حجار، ص38).

استخدم المفكرون ما بعد الحداثيون فرضية فوكو حول ارتباط المعرفة بالقوة لفحص الحقائق السائدة في مختلف نظريات العلاقات الدولية، ولرؤية كيف أن المفاهيم وادعاءات المعرفة التي هيمنت على الحقل هي في الحقيقة مُتوقَّعةٌ إلى حد كبير على قوة محددة أو خاصة. وكمثال عن ذلك، قُدِّمت ثلاثة أعمال حول مفهوم السيادة في التاريخ وفي نظرية السياسة الدولية، من طرف كل من Cynthia (1999), Jenny Edkins et al (1995), Jens Bartelson (1995), Weber (1995). وأفضت النتائج التي توصلوا إليها إلى أن مفهوم السيادة ارتبط بالصورورة التاريخية، وذلك بالرغم من محاولات علماء الإتجاه السائد - وبشكل مصطنع - إضفاء صبغة المعنى الثابت عليه، بل إن محاولات العلماء نفسها انغمست في ممارسة السيادة بإنتاج الخطاب حولها (Smith and Owens, 2005, p285).

كما استخدموا آلية التناص والقراءة المضاعفة بغية تفكيك بعض المفاهيم السائدة - والتي سُوقَت على أن لها معنى واحد وثابتا - وإظهار كيف أنها تحتمل أكثر من قراءة واحدة، وبالتالي فهي تحتمل أكثر من معنى واحد. ففي مجال التنظير للعلاقات الدولية، أدت مثل هذه القراءة المضاعفة لمفهوم "الفوضى" Anarchy - طبقا للأدبيات التقليدية للعلاقات الدولية ثم تقدم قراءة ثانية - إلى إظهار كيف أن ما يبدو تعارضا طبيعيا بين مفهومي الفوضى والسيادة الذي جرى تسويقه في القراءة الأولى هو في الحقيقة

تعارض مصطنع (Smith and Owens, 2005, p287)، إذ ليس التعارض هو الشكل الوحيد الذي يطبع العلاقة بينهما، وإنما هناك أشكال أخرى للعلاقة ترتبط بفهم وإدراك الدول لكلي المفهومين وللعلاقة التي يمكن أو ينبغي أن تنتج عنهما. يُسائل ما بعد الحداثيون كذلك المفهوم الشامل أو الكلي للدول، والذي يرونه كخيال Fiction تشكل وتكون بواسطة ممارسات وإدراكات العلماء والمواطنين على حد سواء. وأكدوا على أن الدول لا تتصرف وفق طرق منتظمة ودائمة كما تقول به النظريات السائدة، ولكنها معروفة فقط من خلال القصص التي تحدثت عنها والمنتقاة من خلال منظورات رواتها (Mingst, 2004).

ركز ما بعد الحداثيون بصفة أكبر في تقديمهم لنظريات العلاقات الدولية السائدة على المفاهيم والأطروحات الواقعية وحاولوا تقويضها، فانتقدوا الطريقة الأساسية التي يستخدمها التقليد الواقعي في إدعاءاته المعرفية لبسط هيمنته على الحقل، من خلال بناء العديد من السرديات Narratives التي تتحدث عن نشأة الحقل المعرفي للعلاقات الدولية وتطوره (Dornelles, 2002, p07). كما انتقدوا التزام الواقعيين - في سبيل تعزيز هيمنة نظريتهم على باقي نظريات العلاقات الدولية الأخرى - بمنهج تبرير وشرعنة المعرفة، وذلك حينما رَوَّجوا لسردية التطور التاريخي للتقليد الواقعي، بدءاً بالإنتساب المباشر إلى ثيوسيديدس في العصر اليوناني، ثم من بعده إلى مكيافيلي في العصور الوسطى، ثم من خلال توماس هوبز وباقي الفلاسفات السياسية المهمة لعصر التنوير. ومحور هذه السردية هو التأسيس الفكري والتاريخي للواقعية كنظرية حديثة للعلاقات الدولية، ولكن لها جذورا فكرية تمتد حتى إلى عصر اليونان. لذا يعمل ما بعد الحداثيين على التشكيك في هذه السرديات وكشف انحيازاتها (Dornelles, 2007).

تحدّى ما بعد الحداثيون كذلك الافتراضات الفلسفية والإبستمولوجية للواقعية، خاصة الواقعية الجديدة. وانتقدوا فكرة التمييز بين الحقيقة والقيمة، وفكرة التمييز بين الذات والموضوع، وفكرة وجود انتظامات وقوانين موضوعية تحكم السياسة الدولية، وإمكانية الوصول إلى نظرية علمية وعامة للعلاقات الدولية. كما هاجموا توجهها المنهجي القائم على الملاحظة والتجريب قصد الوصول إلى معرفة هذه القواعد والقوانين. وانتقدوا وجهة النظر الأحادية والإقصائية للواقعية عندما تنظر للسياسة الدولية على أنها صراع

تحكمه عوامل مادية "عسكرية" بالدرجة الأولى. وباستعمال مفهومي "التضمين" Inclusion و "الإقصاء" Exclusion اللذين قدمهما جاك دريدا، يُبيّن ما بعد الحداثيين كيف أن الواقعيين قد ضَمَّنُوا بعض المفاهيم وجهات نظرهم وأقصوا وجهات النظر الأخرى، ويتجلّى ذلك في العديد من مفاهيم مثل: الدولة، والسيادة، والقوة، ... إلخ.

يدافع ما بعد الحداثيون بشدة عن ضرورة انفتاح الحقل على التعددية النظرية والفلسفية والإبستمولوجية والمنهجية، وضرورة أن يعكس حقيقة التنوع الموجود في واقع المجتمعات الإنسانية وفي تجاربهم وخرائهم التاريخية، وكذلك الإلتفات إلى الأبعاد المختلفة التي تحكم الحياة الإنسانية ككل، خاصة القيمة والمعنوية منها، ومواكبة الظروف الدولية الجديدة بعد نهاية الحرب الباردة وبعد أحداث 11 سبتمبر 2001 التي نَبَّهت الباحثين في العلاقات الدولية إلى وجود نظم عقدية متباينة، وعوامل ذاتية في السياسة الدولية، والتي جعلت الكثير من الافتراضات الأساسية في علم الاجتماع الغربي محل استفهام، لاسيما تلك التي تعتقد بعقلانية الفعل الإنساني وخطية تطوره الاجتماعي. ورفضوا بقاءه مغلقاً تحت هيمنة الفلسفة الحداثية بتوجهاتها النظرية العقلانية - الوضعية، وبتمحورها حول الذات والتجربة والخبرة الإنسانية الغربية.

رغم صحة الكثير من ادعاءات ما بعد الحداثيين حول طبيعة المعرفة، وحول طبيعة الإنسان والمجتمع، وحول طبيعة الحياة السياسية الدولية، ورغم الطموحات والآمال التي عقدتها على تفكيك وإعادة بناء حقل العلاقات الدولية، بما يستجيب لفكرة الاختلاف والتعدد النظري وإعادة ربط السياسة بالأخلاق والذات بالموضوع والقيم بالحقائق ... إلخ، إلا أنها فشلت في تحقيق ذلك. حيث لقيت ممانعة وانتقادات شديدة من طرف نظريات الاتجاه السائد. ويرر ستيف سميث ذلك بكونها أفرطت في الجانب النظري ولم تهتم بدرجة كافية بالعالم "الحقيقي" (سميث، ص392)، رغم تأكيد ما بعد الحداثيين على أنه لا يوجد في العالم الاجتماعي ما يسمى بالعالم الحقيقي.

هناك من يعيب على تيار ما بعد الحداثة افتقاره إلى مرجعية موحدة، وسقوطه في فخ التعددية المفرطة (حسن، ص144)، مما يجعل العالم الذي ينشده ما بعد الحداثيون هو عالم مفكك، تسقط فيه كل

المنظومات المعرفية والأخلاقية والجماعية، كما تغيب عنه الوجهة والغائية أو المقصدية، أي عالم بلا معالم. وبعض الإنتقادات شككت في جدية الفكر ما بعد الحداثي في التحرر من قيود الحداثة أو من هيمنة النظام المعرفي الغربي. إذ أن نظرة عميقة ومتفحصة تكشف عن أن ما بعد الحداثة هي كذلك ذات مركزية غربية - أوروبية (حسن، ص 146)، حيث تبني هذا التيار فلسفات ورؤى تعكس القلق الفكري والفلسفي للإنسان الغربي، كما أنها تحمل آمال وطموحات شعوب ومجتمعات عاشت وأنتجت الحداثة وأرادتها عالمية وكونية، فكيف يمكن جمعها مع مجتمعات مازالت في مرحلة ما قبل الحداثة؟ كما أنها وقعت في مثلب الحداثة نفسه حينما رافعت لصالح حتمية وعالمية قيم ما بعد الحداثة، بينما أنكرت ذلك على فلسفة الحداثة.

إن اعتماد ما بعد الحداثة على فكرة التقويض والهدم، جعلها لا تقدم للإنسان بديلا واقعيا وعمليا. حيث لا يمكن تطبيق العديد من تصوراتها، كما أنها تعاني مشكلة مزمنة فيما يخص اللغة الإصطلاحية للنظرية والمحتوى الإمبريقي، بالإضافة إلى إغراقها في الحديث عن المنهجية وعن فلسفة العلم، وطرح القليل مما يفيد في مجال نظرية العلاقات الدولية. وبالتالي، فإنها عوض طرح نظريات، قدّمت وعودا حول ما قد تبدأ عليه نظرية ما بعد الحداثة عندما تأتي فعلا (براون، ص ت).

#### 4. خاتمة:

خلصنا في نهاية هذه الدراسة إلى أن ما بعد الحداثة قد فتحت أعين الباحثين والعلماء على ما هو منسيٌّ ومحدوفٌ وغير مُفكَّرٍ فيه في مجال العلاقات الدولية، خاصة على مستوى قاعدة البناء الفلسفية، الإستمولوجية، والمنهجية (الوضعية) التي تبنتها أغلب نظريات العلاقات الكبرى (الواقعية، الليبرالية، والماركسية).

راهن ما بعد الحداثيين على قاعدة التمييز الحاد بين خصائص الظاهرتين الطبيعية والإجتماعية، للقول بأن هذه الأخيرة تستدعي إعادة التفكير جذريا في المنطلقات التي يبنى عليها التفكير والتنظير للعلاقات الدولية. فمن الناحية الفلسفية وجب التسليم بأن الحقيقة شيء "ترانسندالي" - بتعبير كانط -

يأبى القولية أو الإحاطة به أو صياغته في أشكال من الأحادية، وعضوا عن ذلك وجب النظر إلى الحقيقة بوصفها بناءً اجتماعياً تعزّيه كل مظاهر الاختلاف والتعدد والتنوع. ومن الناحية الإستمولوجية، ينبغي التسليم بعدم إمكانية معرفة حقائق السياسة الدولية بشكل يقيني، ذلك أنها لا تخضع لمفاهيم الموضوعية والإستقلالية والحيادية؛ ولا لمفاهيم الإنتظام والتكرار والحدوث على النمط نفسه، اللّاتي تكفل وجود قوانين تحكمها على شاكلة قوانين الطبيعة. ويستتبع ذلك من الناحية المنهجية البحث عن مناهج بديلة تتواءم مع حقيقة أن الظاهرة الإجتماعية والإنسانية قسدية وغائية تستوجب التعامل معها بمناهج كيفية (نوعية) لا كمية.

إن الإستناد إلى مسلمات ما بعد الحداثة السابقة يقودنا إلى ضرورة إعادة مراجعة شاملة وجذرية لكل المفاهيم والنظريات السائدة في حقل العلاقات الدولية، حدّ القول بدم الحقل وإعادة بنائه من جديد. وإذا كانت مهمة الهدم سهلة على ما يبدو، إذ يكفي أن نُسلّم بفكرة البناء الإجتماعي للسياسة الدولية حتى نزرع الموضوعية والحيادية، ونضفي الذاتية والنسبية والخصوصية، على كل المفاهيم والإفتراضات النظرية السائدة؛ إلا أن السؤال الذي لا يملك له مفكرو ما بعد الحداثة جوابا يتعلق بشكل البناء البديل للحقل وتوقيته؟

بالعودة إلى مسلمات ما بعد الحداثة نفسها، فإننا نستنتج دون عناء أن ما بعد الحداثة تهدم ولا تبني، لأنها منطقتها يقوم على الذاتي والخاص والمتفرد، ولأنها تعتبر المعرفة تجربة ذاتية لا يمكن تكرارها أو تعميم نتائجها. عكس منطق الحداثيين الوضعيين الذي قام على فكرة مُراكمَة المعرفة المستخلصة من المتشابه والمنتظم والمتكرر من أحداث وظواهر العلاقات الدولية.

## 5. قائمة المراجع:

### 1- الكتب:

- براون، كريس. (2004). فهم العلاقات الدولية. الإمارات العربية المتحدة: مركز الخليج للأبحاث.
- سميث، ستيف. (2004). مقاربات جديدة للنظريات الدولية، في جون بيليس وستيف سميث، (محرران)، عولمة السياسة العالمية، الإمارات: مركز الخليج للأبحاث.
- عبد الله، عصام. (2010). الجذور النيتشوية لـ "ما بعد" الحداثة، في أحمد عبد الحليم عطية، (محرر)، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، بيروت: دار الفارابي.
- غريفيثس، مارتن وتيري، أوكلاهان. (2008). المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، الإمارات العربية المتحدة: مركز الخليج للأبحاث.
- كريب، إيان. (1999). النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابرماس. ترجمة محمد حسين غلوم الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
- ونت، ألكسندر. (2006). النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية. ترجمة عبد الله جبر صالح العتيبي السعودية: جامعة الملك سعود.
- Chernoff, Fred. (2007), Theory and Metatheory in International Relations: Concepts and Contending Accounts, USA: Palgrave Macmillan.
- Devetak, Richard. (2005). Postmodernism, in Scott Burchill and all (eds.), Theories of International Relations, USA: Palgrave Macmillan.
- Mansbach, Richard and Rafferty, Kristen. (2008). Introduction to Global Politics, USA: Routledge.
- Mingst, Karen. (2003). Essentials of International Relations, USA: W.W. Norton & Company.
- Neufeld, Mark. (1995). The restructuring of International Relations Theory, USA: Cambridge University Press.

- Smith, Steve and Patricia, Owens. (2001). Alternative Approaches to International Theory, in John Baylis and Steve Smith (eds), The Globalization of World Politics: An Introduction to International Relations, UK: Oxford University Press.
- Sutch, Peter and Juanita, Elias. (2007). International Relations: The Basics, UK: Routledge.

## 2- الرسائل والأطروحات:

- حجار، عمار. (2003). السياسة المتوسطة الجديدة للإتحاد الأوروبي: إستراتيجية جديدة لاحتواء جهوي شامل، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلاقات الدولية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر.

## 3- المقالات:

- حسن، حمدي عبد الرحمن. (2010). علم السياسة وأزمة ما بعد الحداثة: نحو بديل حضاري، ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد 6، العدد (23).

## 4- مواقع الإنترنت:

- حمداوي، جميل. (2012/02/18). مدخل إلى مفهوم ما بعد الحداثة. <https://bit.ly/3t6sABr> ، (تم التصفح في 2021/04/28).
- وطفة، علي أسعد. (2019/07/4). مقاربات في مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة، <https://bit.ly/3t7n0Pd> ، (تم التصفح في 2021/04/30).
- Dornelles, Felipe Krause. (2002). Postmodernism and IR: From Disparate Critiques to a Coherent Theory of Global Politics, <https://bit.ly/3uaVCBe>, (28/04/2021).

- Meyers, Reinhard. (2005). Contemporary Developments in International Relations Theory, [bit.ly/34LER5E](https://bit.ly/34LER5E), (23/03/2021).